



مسامرات - 20

المسلمون افتتحوا كرجستان «جورجيا» صلحاً في عهد الخليفة عثمان بن عفان على يد حبيب بن مسلمة

سيلان وبريطانيا.. رحلات كويتية مشهودة

رحلة الشيخ أحمد الجابر إلى بريطانيا نيابة عن الشيخ سالم المبارك أدخلت الكويت إلى المجتمع الدولي على نطاق واسع
الشيخ أحمد الجابر هنأ ملك بريطانيا بالانتصار في الحرب العالمية الأولى وأهداه خنجراً عربياً وسيفاً مطلياً بالذهب وحصاناً



بقلم: د. يعقوب يوسف الغنيم



غلاف كتاب «بلدان الخلافة الشرقية»، للمؤلف كي لسترنج



الكاتب صالح الغريب



المرحوم خالد راشد بورسلي



الطوخذة محمد بن عيسى



الملك جورج الخامس



الشيخ أحمد الجابر خلال زيارته لبريطانيا



الشيخ سالم المبارك

الصباح (1864 - 1921م) دعوة من بريطانيا لزيارتها بمناسبة انتهاء الحرب العالمية الأولى في اليوم الحادي عشر من شهر نوفمبر لسنة 1918م. وقد رأى الشيخ سالم أن يقوم مقامه في تلبية هذه الدعوة والقيام بالزيارة التي يمكنها الجابر الصباح. وقد كانت متابعة الشيخ سالم المبارك لهذه الزيارة دالة على اهتمامه بنجاحها لأنها كانت من الرحلات التي أدخلت الكويت إلى المجتمع الدولي على نطاق واسع.

وكانت الكويت قد أسهمت في أعمال هذه الحرب بالقرن الذي يمكنها القيام به، ولكنه كان دوراً نافعاً للحلفاء في وقته. أتت دعوة الملك جورج الخامس (ملك بريطانيا آنذاك) في أوائل صيف سنة 1919م. وفي شهر أكتوبر من السنة ذاتها تمت هذه الزيارة.

وابتدأت وسط حفاوة كبيرة بالزائر الشيخ أحمد الجابر الصباح، وكانت إقامته في لندن بفندق كارلتون الذي كان يعد من أفخم فنادق العاصمة البريطانية في ذلك الوقت.

وقد أعد للشيخ ومرافقيه برنامجاً حافلاً شمل عدة زيارات شاهد الوفد خلالها كثيراً من الأماكن المهمة، ولم يترك مجالاً من المجالات التي ورد ذكرها في البرنامج دون أن يتجه إليه. وكان من ذلك الممران ومحكمة هامبتون. وزار في أيام زيارته مدينة جلاسكو، واطلع على كثير من الإنجازات التي تمت فيها لأجسامه والجنس الرابع، وقاعدة الغواصات، وغير ذلك.

وفي كتابنا ملامح من تاريخ الكويت الصادر في سنة 2001م وصف تام لهذه الرحلة اعتماداً على مصدر مهم يجده القارئ هناك. وبهنا هنا أن نورد وصفاً لما يعتبر أهم ما كان في الزيارة، وهذا هو بحسب النص الوارد في الكتاب المذكور: «جاءت أعظم لحظات الزيارة، وكانت في 30 من أكتوبر عندما استقبل الملك جورج الخامس الشيخ أحمد الجابر الصباح في قصر باكنغهام وكان يرفقهم الكابتن ماكولم واستمرت المقابلة 17 دقيقة، وقد هنا الشيخ أحمد الملك جورج الخامس على انتصاره في الحرب العالمية الأولى، أعظم الحروب دماراً في التاريخ، كما شكره على الحفاوة التي استقبل بها وكرم الضيافة، وقدم الهدايا للملك التي كانت عبارة عن رابع مطلي بالذهب كان مملوكاً لأحد حساناً عربياً، ولكن هذا الحصان لأسياب معروفة لم يظهر في قاعة الاستقبال، وقد ربح الملك بالتخيل أحمد ترحيباً ودياً، خاصة أنه حفيد مبارك الكبير، وأكد له أنه مستعد للإجابة عن أي سؤال أو طلب يطلبه حول الكويت، وفي النهاية أهدى له الملك صورة في إطار من الفضة مرسومة عليه الشاعر الملكي والنحاح».

وفي اليوم الثامن من شهر نوفمبر، غادر الشيخ أحمد الجابر الصباح بريطانيا عائداً إلى الكويت، وحل في طريقه بمصر، حيث لقي حفاوة بالغة، وشاهد عدداً كبيراً من آثارها فقد زار المتحف المصري ورأى الأهرامات وأبا الهول وبقي هناك حتى اليوم السابع والعشرين من شهر نوفمبر حين غادر مصر في اليوم السابع والعشرين من شهر نوفمبر، إلى الكويت التي وصلها في اليوم الخامس عشر من شهر ديسمبر.

وبعد، فهذه جولة في دنيا الترحال قديماً وحديثاً، وكان لابد منها حتى نطلع على أعمال الرحالة القدماء والمحدثين الذين كان مهمهم في رحلاتهم العمل والاستكشاف.

خالد بورسلي شرح نظام الغوص في الجزيرة وطريقة عمل البجارة وأنواع المراكب وكيفية الإبحار إلى الهند قبل إصلاهم لغايتهم
الطوخذة محمد العصور قبل مهمة نقل أسماك مجففة من الهند إلى سيلان واستطاع تخطي الأخطار معتمداً على خبرته وذكاؤه وخرايطه
الكويتيون كانوا يرحلون إلى سيلان (سريلانكا) في مواعيد محددة لأجل الغوص على اللؤلؤ حسب أنظمة الدولة الواجب التقيد بها

حدثني المرحوم خالد راشد بورسلي، وهو رجل له دراية بتاريخ الكويت، ومعرفة بأهلها، وهو ابن من أبناء أحد النواخذة البارزين وكان الأب من أوائل الذين غادروا البلاد من أجل الدراسة في الخارج، فقد رحل في سنة 1306هـ (1888م) إلى مصر لتلقي العلم في الأزهر بالقاهرة، وقد أمضى هناك فترة ثم عاد، وأسمه الكامل هو راشد بن ناصر بورسلي، وهو والد الشاعر المعروف فهد بورسلي وهو أخ لخاله الذي أنقل عنه المعلومات التالية:

يختلف نظام الغوص في جزيرة سيلان عن نظام الغوص في منطقتنا هنا، فمن نظامهم هناك أن يتم الغوص في منطقة معينة لمدة أربعين يوماً فقط. وقبل بداية الغوص يقوم أحد المختصين بفحص قاع البحر والإطلاع على حالة الحمار فيه. فإذا كان ملائماً تم السماح للغوص بممارسة عملهم، وإن كان غير مناسب كان يكون صليفاً ملاً فإن الغوص يؤجل إلى السنة المقبلة.

وكانت العادة أن يأتي إلى الكويت مناد يطوف بالبلاد يدعو من يرغب في السفر إلى سيلان للغوص هناك، فيجتمع حوله الراغبون في ذلك، ويتولى هو تقصدهم إلى حيث تقف باخرة من البواخر التي تقصد الهند، وهي توصلهم إلى الغاية. وكان الشخص المذكور مسؤولاً عن كل ما يتعلق بالخاصة من أجرة الباجرة والاكل في مقابل نسبة من حصيلته الغوص، فإذا وصلت المجموعة إلى سيلان، كان مقرها في موقع يقال له: تيتوكي وهو على ساحل البحر، حيث المغاص المقصود. وكان سكن هؤلاء في عراش (عشيش) أعدت لذلك، وبجوارها لوازم الغتسال والنظافة.

وطريقة العمل هناك هي في أن تستاجر المجموعة أحد المراكب الصغيرة وتتفق مع شخص يساعدهم الغواص في عمله (وهو ما تسميه هنا السبب) هذا وهو نظام الغوص هناك، وأما ما يتعلق بالسفر الذي تقوم به سفن النقل والتجارة الكويتية، فإننا نستطيع أن نقول إن النواخذة الكويتيين قد عرفوا سيلان (سريلانكا الآن) ابتداءً من سنة 1937م، وذلك عندما سحنت فرصة مهمة لأحدهم فأبحر بسفينته إلى هناك.

هذا الطوخذة هو محمد بن عيسى العصور، وهو من أبرز نواخذة الكويت في زمنه، وكان من مواليد سنة 1908م، في الكويت، وهو من ضمن أربعة من أمثاله شهد لهم قبطان سفينة الأسطول البريطاني شوراها.

كان هذا الطوخذة في السنة التي اتجه فيها إلى سيلان قد وصل بسفينته إلى الهند في رحلة سفر عادية، وهناك جاءه أحد تجار الهند وطلب منه حين كان على الساحل الغربي للهند نقل كمية من الأسماك المجففة من هناك إلى كولومبو عاصمة سيلان.

وقد قبل القيام بهذه المهمة. ولم يكن أحد من أمثاله قد سار إلى تلك البلاد في مثل هذه المهمة، ومع ذلك فقد قبل القيام بالمجازفة ثقة منه بنفسه، وبمقدرته على تخطي الأخطار، فسار معتمداً على خبرته وذكاؤه، وعلى ما معه من معدات وخرايط. ووصل - بالفعل - إلى هناك، فاتحا طريقاً جديداً للرزق أمام عدد آخر من زملائه، فتمت بعد رحلته هذه عدة رحلات بقيادة نواخذة من أهل الكويت يقودون سفناً كويتية.

ولقد تحمل كثيراً من المشاق في سبيل الوصول إلى هدفه، ولكنه - في آخر الأمر - نجح في تحقيق ما يريد، ونزل إلى مدينة كولومبو وشاهد فيها مشاهدات كثيرة. وقد ذكر فيما بعد أنه أعجب بنظافة المدينة وطيب المعيشة فيها.

ان الثمانين - وبلغت أوجت سعيي إلى ترجمان وأبدلتني بالسطاط الحنا وكنت كالصفدة تحت التسنان وعوضتني من زعاع الفضي وهفه فه الهجين الهيدان وهفت بالوطنان وجداً بها وبلغواي، ابن مني الفوان فقزبانسي - بابسي اتنصا - من وطني قبل اصفزار البنان وقبيل شعفاي إلى نسوة اوطنانها حزان فارقتان سقى قصور الشؤبادخ الحيا ومن بعد عهدي وقصور الميهان فكم وكسم من دعوة لي بها ان تعظا صروف الزمان

ها نحن قد اتينا من الحديث عن الزمن الماضي وما جرى فيه من حيث وصف ما تم في هذه المنطقة الواسعة التي كانت مجالاً لكل ما قدمناه، بل إنها كرجستان تتكون من منطقتين هما وخراسان.

ولذا، فإننا - بعد ذلك - نتحدث هنا عن التحرك البشري في الزمن الحديث، ولكننا سنختار من ذلك ما يتعلق بالكويت أو على الأخص بأهلها. وستكون لنا وقفان هما:

الوقفة الأولى تتعلق بالرحلة إلى سريلانكا التي كانت تسمى في وقت تلك الرحلات: سيلان.

وهي جزيرة في جنوبي الهند بالمحيط الهادري، مساحتها 65610 كم2، وكان عدد سكانها في سنة 1998م يقرب من تسعة عشر مليون نسمة. عاصمتها كولومبو، وهي أهم موانئها، لسيلان مقدره عالية على الإنتاج الزراعي، لاسيما أنها مشهورة بزراعة الشاي على مستوى العالم.

حكمها البريطانيون حكماً مطلقاً لم ينته إلا في سنة 1948م حيث استقلت، وصارت دولة ذات سيادة عضواً في الكومنولث البريطاني.

كان اسمها عند العرب القدماء هو: سرنديب، وكانت بريطانيا تتخذها منفى لأعدائها وأعداء حلفائها، وهناك أسماء عربية معروفة نقي أصحابها إلى هذه البلاد. وكانت سيلان - أيضاً - ممراً للرحلات القادمة، وقد ورد ذكرها في كتبهم.

كان الكويتيون يرحلون إلى سيلان في مواعيد معينة تحت إشراف الحكومة السلطانية (الأخوية آنذاك) من أجل الغوص على اللؤلؤ، ولسيلان أنظمة محددة تتعلق بهذا العمل لابد لمن يريد السفر الكويتية لا تستطيع أن تبجر إلى سيلان من أجل هذا الغرض، لأن نظام الغوص هناك لا يتيح لها ذلك، وهذا ما يوضحه ما يلي:

برزة الأسلمي، والحكم بن عمرو الغفاري وعبدالله بن خازم الأسلمي المدفون في نيسابور، وقدم بن العباس رضي الله عنهم جميعاً. وفيها مشهد قبر الإمام الثامن من أئمة آل البيت النبوي الشريف الإثني عشر علي الرضا المتوفى في سنة 202 هـ.

ولا داعي لذكر بعض أجزاء خراسان الأخرى لأن الأمر سيطول بنا إن أردنا ذلك. وقبل الانتقال من بحثنا في أمر جورجيا، فإننا نورد هنا ما ينصل بهذه البلاد حديثاً. فهي تقع في جنوبي غرب آسيا وساحتها 69700 كم2، وعدد سكانها في سنة 1997م كان نحو 5174642 نسمة. ولا تزال عاصمتها هي تفليس التي ينطقها الأهالي هناك: تبليسي.

يحدثها البحر الأسود غرباً، وأذربيجان شرقاً، وتركيا جنوباً، وروسيا شمالاً، وفيها أنهار، ومناطق جبلية، وأخرى سهلية.

صارت جورجيا جمهورية سوفييتية في سنة 1921م، وأعلن استقلالها في سنة 1991م، تولى فيها السياسي المعروف في أواخر أيام الاتحاد السوفييتي ابوارد شفرنادزة - وهو من أهالي جورجيا - رئاسة حكومة انتقالية، ثم انتخب رئيساً للدولة بعد ذلك.

وما دمننا نتحدث عن هذه الجهة من جهات بلدان الخلافة الإسلامية الشرقية، فلأيد من الحديث عن خراسان، وكما حدث في الماضي لكرجستان (جورجيا) فقد حصل لخراسان، التي ذكرها كتاب «بلدان الخلافة - الشرقية» فقال ما يلي: «واقليم خراسان الحالي ليس إلا بقية للضعف الكبير الذي كان يعرف منذ أيام العباسيين حتى أواخر القرون الوسطى. فقد كان يضم حينذاك ما هو واقع الآن شمالي غربي أفغانستان.. وكان تقسيم خراسان عند العلماء البلديين من المسلمين القدماء على أربعة أقسام هي: نيسابور، مرو، وهرات، وبلخ».

ذكر ياقوت الحموي خراسان في كتابه الشهير: «معجم البلدان» فقال عنها: إنها بلاد واسعة في وقت تأليفه لكتابه ذلك، وقال إن هذه البقعة الكبيرة قد فتح أكثرها ضمن الفتوحات الإسلامية الأولى عنوة وصلحاً، وذلك في أيام الخليفة الراشد عثمان بن عفان.

قد أطل في الحديث عن هذه البقعة من عدة جوانب، ولم ينس الشعر الذي قيل فيها. فأورد منه بعض الشواهد التي كان منها قول الشاعر الشهير العباس بن الأخطف:

قالوا خراسان أقصى ما يزد بنا ثم الفول، فها جنتا خراسانا ما أفتقر الله أن يأتي على شخط سكان دجلة من سكان جيجاناسيما عين الزمان أصابتنا فلا نظرف. وغذبت بفنون الهجر الوانا (القول: العودة، سيجان: نهر هناك). وكعادته ذكر ياقوت أسماء نوابغ العلماء والمحدثين والفقهاء الذين أنجبهم تلك البلاد، فكان عددهم كبيراً، وكانت مكانتهم عالية، وأسماؤهم من ألغ الأسماء في تاريخ الإسلام وخرسان اليوم جزء من إيران، وعاصمتها مدينة مشهد، وكانت كما هو الحال مع كرجستان صغراً واسعاً تم افتتاحه في زمن الخليفة الراشد عثمان بن عفان. وقد افتتحها الجيش المسلم بقيادة الأحنف بن قيس. وقد تم استكمال هذا الفتح في زمن الخليفة عثمان بن عفان في سنة 31 هـ.

وقامت هذه المناطق: حبيب بن مسلمة بن مالك، هو من أبرز قادة الحرب المسلمين، وكان نزيل دمشق. قبل عنه أنه حين توفي رسول الله ﷺ كان ابن اثني عشر عاماً، وهو الذي تولى فتح المنطقة التي كانت تسمى أرمينية بتكليف من الخليفة الثالث عثمان بن عفان ﷺ. وأرمينية التي افتتحها فكانت أوسع رقعة من جمهورية أرمينية المعروفة حالياً.

وقبل الانتقال من بحثنا في أمر جورجيا، فإننا نورد هنا ما ينصل بهذه البلاد حديثاً. فهي تقع في جنوبي غرب آسيا وساحتها 69700 كم2، وعدد سكانها في سنة 1997م كان نحو 5174642 نسمة. ولا تزال عاصمتها هي تفليس التي ينطقها الأهالي هناك: تبليسي.

يحدثها البحر الأسود غرباً، وأذربيجان شرقاً، وتركيا جنوباً، وروسيا شمالاً، وفيها أنهار، ومناطق جبلية، وأخرى سهلية.

صارت جورجيا جمهورية سوفييتية في سنة 1921م، وأعلن استقلالها في سنة 1991م، تولى فيها السياسي المعروف في أواخر أيام الاتحاد السوفييتي ابوارد شفرنادزة - وهو من أهالي جورجيا - رئاسة حكومة انتقالية، ثم انتخب رئيساً للدولة بعد ذلك.

وما دمننا نتحدث عن هذه الجهة من جهات بلدان الخلافة الإسلامية الشرقية، فلأيد من الحديث عن خراسان، وكما حدث في الماضي لكرجستان (جورجيا) فقد حصل لخراسان، التي ذكرها كتاب «بلدان الخلافة - الشرقية» فقال ما يلي: «واقليم خراسان الحالي ليس إلا بقية للضعف الكبير الذي كان يعرف منذ أيام العباسيين حتى أواخر القرون الوسطى. فقد كان يضم حينذاك ما هو واقع الآن شمالي غربي أفغانستان.. وكان تقسيم خراسان عند العلماء البلديين من المسلمين القدماء على أربعة أقسام هي: نيسابور، مرو، وهرات، وبلخ».

ذكر ياقوت الحموي خراسان في كتابه الشهير: «معجم البلدان» فقال عنها: إنها بلاد واسعة في وقت تأليفه لكتابه ذلك، وقال إن هذه البقعة الكبيرة قد فتح أكثرها ضمن الفتوحات الإسلامية الأولى عنوة وصلحاً، وذلك في أيام الخليفة الراشد عثمان بن عفان.

قد أطل في الحديث عن هذه البقعة من عدة جوانب، ولم ينس الشعر الذي قيل فيها. فأورد منه بعض الشواهد التي كان منها قول الشاعر الشهير العباس بن الأخطف:

قالوا خراسان أقصى ما يزد بنا ثم الفول، فها جنتا خراسانا ما أفتقر الله أن يأتي على شخط سكان دجلة من سكان جيجاناسيما عين الزمان أصابتنا فلا نظرف. وغذبت بفنون الهجر الوانا (القول: العودة، سيجان: نهر هناك). وكعادته ذكر ياقوت أسماء نوابغ العلماء والمحدثين والفقهاء الذين أنجبهم تلك البلاد، فكان عددهم كبيراً، وكانت مكانتهم عالية، وأسماؤهم من ألغ الأسماء في تاريخ الإسلام وخرسان اليوم جزء من إيران، وعاصمتها مدينة مشهد، وكانت كما هو الحال مع كرجستان صغراً واسعاً تم افتتاحه في زمن الخليفة الراشد عثمان بن عفان. وقد افتتحها الجيش المسلم بقيادة الأحنف بن قيس. وقد تم استكمال هذا الفتح في زمن الخليفة عثمان بن عفان في سنة 31 هـ.

تعود مرة أخرى إلى موضوع سبق لنا أن تطرقنا إليه في مسامرة ماضية، وهو موضوع له صلة بالرحلات، ولكنه يختلف - كما سيكتفي لنا - عنه بأن فصوله يلتفت عما كنا في صدره هناك إلى اتجاه آخر، وهذا هو ما سيوضح لنا فيما بعد، وما سنشير إليه في ختام هذا الفصل الذي سيجي جانباً آخر من جوانب هذا الموضوع الذي شغل القدماء من ساسة أمتنا، ومجاهديها، وعلماؤها، والرحالة من أهلها.

استوحيت فكرة هذا الفصل من حديث دار بيني وبين أخي الأستاذ الأديب صالح الغريب، حين كان عائداً من إحدى رحلاته الكثيرة التي رأى من خلالها - فيما أظن - كامل الكرة الأرضية. ولم تكن رحلاته هذه بغير فائدة، فإنه - حفظة الله - كان يستوعب كل مشاهداته، ثم ينقلها بحذافيرها إلى قرائه عن طريق كتاباته المستمرة التي يقدمها - يوماً - إلى متابعي نشاطه.

وعندما لقيته في آخر مرة كان عائداً من إحدى تلك الرحلات، وكان حديثه إلى شيخنا، ومتوصلاً عن كل ما يتعلق بالبلاد التي كانت زيارته الأخيرة لها وهي جورجيا، وقد ذكر لي كل ما يتعلق بها من جهات متعددة حتى لقد استغرقتني إلى زيارتها أو - على الأقل - القراءة الواسعة عنها. وهذا هو ما حصل، فقد طفت مشغولاً بهذا الأمر إلى أن تمكنت من الإلمام به والكتابة عنه، فجات هذه المسامرة.

جورجيا اليوم بلد مستقل جمهوري النظام، يتبع بطبيعة خالصة تحف به الجبال الخضراء، وينابيع المياه المعدنية، وتمتد عاصمته وهي (تبليسي) التي يكتبها العرب: تفليس بجوارها، ذكرتها إحدى وسائط الدعاية السياسية، فقلت: «لكي تحصل على أفضل برنامج سياحي في جورجيا لابد من رحلة إلى جبال تبليسي، حيث عقب تناول وجبة الإفطار، يمكنك القيام برحلات الباصات المنجحة نحو أشهر منطقة جذب سياحي في جورجيا وهو جبل كازبيجي، أو كما يطلق عليه جبل الثلج الذي يعد أعلى قمة جبل في جمهورية جورجيا، ثم زكري أحد المعالم السياحية الرائدة هناك «قلعة أناتوري» التاريخية، مع الاستماع بتذوق المناظر العديدة التي تخرج من أراضي مناطق ألبن وجوردوري، بالإضافة إلى الذهاب لمشاهدة دير الثالوث المقدس، وأخيراً العودة إلى الفندق للراحة من السفر».

(وليعزني القارئ على ركاكة أسلوب هذا الإعلان، فهو محسوب على كاتبه). كانت جورجيا واحدة من جمهوريات الاتحاد السوفييتي السابق، وكان اسم جورجيا القديم هو: كرجستان، أي: بلاد الكرج، ومساحتها القديمة كانت تتفوق مساحتها الحالية بكثير.

وصفها مؤلف كتاب: «بلدان الخلافة الشرقية»: كي لسترنج في كتابه، فقال: «كرجستان هي التي تسميها اليوم: جورجيا، وقد وصف البلديين القدماء (الذين كانوا يكتبون عن البلدان) عاصمتها تفليس، فقال عنها ابن جوقل في المائة الهجرية الرابعة إن لها سورين، وهي حصينة لها ثلاثة أبواب، وهي خصبة كثيرة الخيرات».

وذكر لسترنج أيضاً أنها لم تدخل في عداد الولايات الإسلامية إلا في وقت متأخر، ولكن ياقوت الحموي قال في كتابه المعروف «معجم البلدان»: «افتتحها المسلمون في أيام عثمان بن عفان». وذكر أن قائد المسلمين - يومذاك - هو حبيب بن مسلمة، الذي افتتحها وما حولها صلحاً، وكتب بذلك عهداً.

واستمر لهذه البلاد تاريخ يمتلئ بالعزاع، والحروب التي كان بعضها متصلاً بالمطامع، وبعضها الآخر له طابع ديني. وعلى الرغم من عدم استقرار هذه البلاد، وما مرت به من صنوف الثقلبات، فإن ياقوت الحموي ذكر أنه كان من بين أهلها جماعة من أهل العلم الديني الإسلامي، منهم: - أحمد بن حامد التفليسي، - محمد بن علي البيهقي، - علي بن إبراهيم العاقولي. وكان تحصيل هؤلاء للعلم في العواصم الإسلامية قديماً، وقد قاموا بنشر العلم بعد ذلك في نواحيهم وغيرها.



جبل كازبيجي في جورجيا